سلسلة في ظلال السنة : الحديث الثالث

شكر الله

الدكتور
الشيخ سالم بن عبد الغني الرافعي

دار ابن حزم

٣

شـــكـــر اللّه

متن الحديث

● عن جابر بنِ عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أُبْلِيَ بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كَتمه فقد كفره**»(١).

هذا حديث عظيم، يعالج فيه النبي ﷺ مسألة شكر العبد لربّه سبحانه وتعالى، مبيّنا فيه قِسْماً من أقسام الشكر، وهو التحدّث بالنعمة، وأما بقية الأقسام فقد ذُكرت في مناسبات أخرى، وِفق ما اقتضته الحاجة إلى البيان.

وقد رأيت أن أبيّن أقسام الشكر مرتّبَة في أماكنها، ثم أقوم بعون الله تعالى بشرح هذا الحديث في موضعه، مقدّماً للموضوع بمقدّمة تبيّن مدى أهمية الشكر في الإسلام.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٨١٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٦١٨).

أهمية الشكر

من المعلوم أن الانتصار على أي عدوٍ يقتضي من العاقل معرفة أمرين:

الأمر الأول: تبيّن عداوته.

والأمر الثاني: طرق مكره وخداعه.

وأعدى أعداء الإنسان هو الشيطان. ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن كشف لهم مدى عداوة الشيطان للإنسان، كما بيّن لهم طرق مكره وخداعه، حتى يسهل لهم الانتصار عليه.

بعض الناس قد يعاديك حسداً مما أَوْلاك الله من نِعم، فإذا بذلتَ له شيئاً من مالك أو جاهك، صادَقَك وانتهت عداوتُه لك، بل قد تنقلب عداوتُه إلى مودّة نحوك. وأما الشيطان فلا مطمع في إرضائه أو كسب مودّته إلا إذا بذلتَ له نفسَك، وساقَكَ معه إلى جهنّم. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ

عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾[1]، فليس بعد هذه العداوة من عداوة.

لذلك أرشد الله سبحانه وتعالى المؤمنين إلى مداراة الأعداء من الإنس بالخصلة الطيّبة، رجاءَ أن تنقلب عداوتُهم إلى مودّة، وأما بالنسبة للشيطان فلا تنفع معه هذه السياسة، إذ لا تنقلب عداوته إلى مودّة قطّ، ولا ينفع معه إلا الاستعاذة بالله من شرّه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[2].

وكما بيّن الله سبحانه وتعالى مدى عداوة الشيطان للإنسان، كذلك كشف للناس طرق مكره وخداعه حتى يتسنى لهم الانتصار عليه.

فممّا بيّنه الله تعالى في هذا الأمر، أن كشف للناس أن أعظم ما يسعى له الشيطان، ليتوصّل به إلى إضلال الناس، هو صرفُهم عن شكر الله سبحانه وتعالى.

---

(١) فاطر: ٦.

(٢) فصلت: ٣٤ ـ ٣٦.

قال تعالى فاضحاً خطّة إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[1]، أي: سوف أستعمل للناس كل حيلة ووسيلة حتى أصرفهم عن شكرك.

وفي هذا البيان يظهَرُ مدى قَدْر الشكر وأهمّيّته، وأنه من أجلّ المقامات وأعلاها، ولولا ذلك لما بذل إبليس كل همّه وسعيه إلى قطع الناس عنه.

ثم لم تقتصر رحمة الله تعالى بعباده أن بيّن لهم عداوة إبليس لهم، وسعيه في صرفهم عن شكر خالقهم، بل جاءت النصوص الشرعية ببيان المكائد التي يستخدمها الشيطان لهذه الغاية.

(١) الأعراف: ١٦ ـ ١٧.

مكائد الشيطان
في صرف الناس عن شكر خالقهم

● **المكيدة الأولى هي: أن يُغريهم بنسبة النعمة لغير الله:**

فكيف يقوم العبد بشكر الله على نعمة، وهو لا يراها أصلاً أنها من عنده سبحانه!

ومثال ذلك: أن العرب كانت تعتقد في جاهليتها أن الكواكب تؤثر بنفسها في نزول المطر، لذلك كانوا إذا أُمطروا، أرجعوا الفضل في ذلك إلى الكواكب. فلمّا جاء الإسلام نهاهم عن هذه العقيدة، وبيّن لهم أن المطر كسائر النّعم هو من الله خلقاً وتفضلاً، وليس للكواكب فيه أي مِنّة.

فروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، فأصابنا مطر ذات ليلة.

فصلى لنا رسول الله ﷺ الصّبح، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «**قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مُطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله، فهو مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنجم كذا، فهو مؤمن بالكوكب، كافر بي**»[(١)].

فالشيطان يحاول أن يُقنع الناس أن النّعمة التي بهم لا فضل فيها لله، وإنما لغيره، فبالتالي لن يشكروه على ما لم يتفضّل به عليهم.

وقد يظنّ بعض الناس أن هذا كان في زمن الأوائل، حيث ساد الجهل والضلال، أما اليوم ومع انتشار تعاليم الدّين الحنيف، لم تعد تنفع الشيطان هذه الحيلة، ولن يمكنه أن يُضّل بها أحداً، سيما من المسلمين. وهذا خطأ، لأن الشيطان يتوسّل إلى غايته كل حيلة، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا، حتى المسلمون منهم، ينخدع كثير منهم بهذه المكيدة.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في التحذير من هذه

(١) أخرجه البخاري في أول غزوة الحديبية برقم (٤١٤٧)، واللفظ له، ومسلم في الإيمان برقم (١٢٥).

المكيدة قصة قارون. وفيها أن قارون لما وَعَظه قومه وذكّروه، بأن الأموال الطائلة التي يتمتّع بها إنّما هي تفضّل من الله عليه، وأنّ عليه مقابل ذلك أن يبذلها في مرضاته، فماذا كان جوابه؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ الآيات[1]، أي قال: إنما أوتيت هذه الثروة بفضل علمي وخِبرتي التجارية ومهارتي في البيع والشراء، وليس بفضل الله كما زعمتم حين قلتم: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، فالفضل فيما أوتيت يرجع إليّ وليس لله، وهذا على أحد أوجه تفسير هذه الآية الكريمة.

فالجواب الذي أجاب به قارون، يقع في قلوب كثير من الناس، فيرَوْن في أنفسهم أن الفضل في نجاحاتهم وانطلاقاتهم يرجع إلى ذكائهم وخبرتهم، ولا يخطر ببالهم أي فضل لله في ذلك، وإن لم يجرؤا على التصريح بما صرّح به قارون.

---

(١) القصص: ٧٦ ـ ٧٨.

● **المكيدة الثانية: تحقير النّعمة في عينَيْ أهلها:**

بعض النّاس إذا سألته عن عيْشه وعن أحواله، بادر إلى الشكوى، وإلى التضجّر، مع ما هو فيه من النّعم الوافرة، مثل الصّحة، والزوجة، والأولاد، وكفاية الحال، وغيرها من النّعم التي لا تعدّ ولا تُحصى. فإذا أنكرتَ عليه شكواه، وقلتَ له: اتقِ الله يا رجل، ولا تكثِر الشّكاية، فإنك تتقلّب في نِعَم عظيمة، ومن أوسعها الصّحة، وقد قال ﷺ: «**سلوا اللَّه العفو والعافية، فإن أحداً لم يعطَ بعد اليقين خيراً من العافية**»[(١)]، كما أنك تعيش مستور الحال، وقد قال ﷺ: «**من أصبح منكم آمناً في سربه، معافًى في بدنه، عنده قوتُ يومه، فكأنّما حيزت له الدنيا**»[(٢)]. فيجيبك بقوله: لا تنظر إلى ما أنا عليه، فإنك لو نظرت إلى ما أوتي جارنا فلان، وصديقنا فلان، وكثير من معارفنا وأقاربنا، لعلمت أني أعيش حياة شقيّة بالنسبة لهؤلاء.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات برقم (٣٥٥٨)، وقال: حسن غريب، وقال الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٨٢١): حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد برقم (٢٣٤٦)، وقال: حسن غريب، وكذا ابن ماجه فيه برقم (٤١٤١)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي برقم (١٩١٣).

وهذا للأسف هو حال كثير من المسلمين اليوم، وخاصّة من النّساء، فإنك لا تكاد تسأل امرأة عن حالها وحال أسرتها، إلا أظهرت الشّكاية. لذلك أمرنا النبي ﷺ أن نقارن أوضاعنا بأوضاع من هم دوننا في العيش، وفي الصّحة، وفي سائر النّعم، لأن الإنسان إذا نظر إلى من أوتي أكثر منه، احتقر النّعم التي عنده، وإن كانت في حدّها عظيمة. قال ﷺ: «**انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نِعمة الله**»(١).

ومن هذا الباب أيضاً: أن العبد إذا دُفعت عنه نِقمة عظيمة، فبدلاً من أن يتوجّه إلى شكر الله وحمده على دفع هذه النقمة الكبيرة عنه، تراه يقلل من خَطَرها وشأنها، ويرى أن دفعها عنه كان أمراً عادياً لا يستأهل كل هذا الهمّ الذي كان قد أهمّه بسببها، وبالتالي لا تحتاج المسألة أن يتعب نفسه بصلاة ركعتين أو صدقة على مسكين، شكراً للّه على ما كشف عنه من المصيبة.

وهذا الصّنف من الناس خيرُهم قليل، وقد نعى الله عليهم في القرآن ما يُقابلون به ربهم بعد الفَرَج.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق برقم (٢٩٦٣).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[١].

قال بكر بن عبدالله المزني: ينزل بالعبد الأمرُ فيدعو الله فيُصرَف عنه، فيأتيه الشيطان فيُضْعِف شكره، يقول: «إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه، قال: أوَلا يقول العبد: كان الأمر أشدّ مما أذهب إليه، ولكنّ الله صرفه عني»[٢].

● المكيدة الثالثة: الانشغال بالنّعمة عن شكر المُنعم:

يحاول الشيطان أولاً أن يُنسيَك أنّ النّعمة التي تتقلّب فيها إنّما هي من الله، فإذا انتبهت من هذه الغفلة، حاول أن يحقّر النّعمة في عينيك، فإن لم يتمكن من ذلك، شغلك بالنّعمة عن شكر المُنعم.

ومثال ذلك: رجل فقير الحال متوسّط العبادة، يتمنّى في قرارة نفسه، لو خُفّفت عنه متاعبُ الحياة وأشغالها وتكاليفها، حتى يتفرغ للعبادة أكثر فأكثر. وبعد حين يُحسّن الله تعالى أحواله، فتتوسّع تجارتُه، وتكثر

(١) يونس: ١٢.

(٢) عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيّم: ١٣٠.

أرباحه، فبدلاً من أن تتحسّن عبادته كما كان يُعزّي نفسه، تجده يتراجع فيها. ولئن سألته عن سبب تقصيره في الصلاة وتضييعه لها بعد أن فتح الله عليه ما فتح، ليقولنّ: والله أنا مشغول، ولا أستطيع أن أتغيّب لحظة واحدة عن العمل وإلا لضاع الرزق. سبحان الله! لقد نسي صاحبنا أن الخير الذي يتنعّم به اليوم، كان ضائعاً عنه بالأمس، حتى ساقه الله إليه وخصّه به، فبدلاً من أن يزداد عبادة وشكراً لله تعالى على نعمائه وامتنانه، قابله بهذا النكران، وانشغل بالنعمة، بصيانتها وحياطتها وتكثيرها، عن شكر المُنعم بها.

وقد ضرب الله تعالى لنا في هذا مثلاً. وذلك أن نبيّ الله سليمان عليه الصلاة والسلام، كان مغرَماً بالخيل، معجباً بها، فاستعرضها ذات يوم بعد الظهيرة، يتأمل في جمالها، وخفّتها، ورشاقتها، وسرعتها، ولا زال به الحال حتى غابت الشمس وفاتته صلاة العصر، فماذا فعل؟ يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾[1]، أي

(١) صٓ: ٣٠ ـ ٣٣.

أن سليمان عليه الصلاة والسلام، لما رأى أن الخيل قد أَلْهَتْه عن صلاة العصر، وشغلته عنها، حتى نسيها فلم يذكرها إلا بعد أن توارت الشمس وغربت، ندم على ما بدا منه، حيث شغلته النّعمة عن ذكر المُنعم، فأمر بالخيل أن تردّ عليه، وقام بضرب أعناقها، تعبيراً عن تعظيمه لشعائر الله، وأن ما شغله عن الصلاة، وهي الخيل، لم يعد لها في قلبه أي محل، لذلك أمر بضرب أعناقها. وروى ابن جرير في تفسيره أن الحسن البصري رحمه الله قال عند هذه الآية: «قال سليمان عليه الصلاة والسلام: لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخرَ ما عليك، قال: فكَسَف عراقيبها وضرب أعناقها».

وبعد بيان المكائد أو بعض المكائد، التي يكيد بها الشيطان الناس ليصرفهم عن شكر الله سبحانه وتعالى، لزم بيان الكيفية التي يؤدي بها شكر الله سبحانه.

كيفية الشكر

شكر الله سبحانه وتعالى يكون بالنيّة والقول والعمل، كما قال الشاعر:

أفادتكم النّعماء مني ثلاثة
يدي ولساني والضمير المحجّبا

وأبدأ بالشكر بالقول.

● الشكر القولي:

الشكر بالقول تتعدد أوجهه بحسب النِّعم وعِظَمِها، ويمكن إجماله في الأوجه التالية:

الوجه الأول: من طَعِم طُعمة أو ارتوى بشراب، يكفيه أن يقول الحمد لله. ودليله ما رواه أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب**

الشربة فيحمده عليها»[١].

الوجه الثاني: وأما من منّ الله تعالى عليه بنعمة عظيمة، أو دفع عنه نِقمة كبيرة، فمن السنّة أن يسجد لله تعالى سجدة، يعبّر فيها عن شكره وامتنانه لله بما أنعم عليه، وتسمّى هذه السجدة بسجدة الشكر، وهذه السجدة يمكن إدراجها تحت الشكر العملي أيضاً. ودليلها ما رواه أبو بكرة رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان إذا جاءه أمرُ سرور أو بُشّر به خرّ ساجداً شاكراً لله»[٢].

الوجه الثالث: ومن أوجه الشكر القولي أيضاً: أن يتحدّث الإنسان بالنّعمة. يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[٣]، ويقول النبي ﷺ: «**من أُبْلِي بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كَتَمه فقد كفره**»[٤]، أي: من أُنعم عليه بنعمة فحدّث بها فقد شكرها، وإن أخفاها عن الناس فقد جَحَد شُكرها، قال ابن الأثير في النّهاية: الإبلاء: الإنعام والإحسان، يقال: بَلَوْت الرجل، وأبْليت عنده بلاءً حسناً.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء برقم (٢٧٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد برقم (٢٧٧٤)، واللفظ له، والترمذي في السير برقم (١٥٧٨) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٤١٢).

(٣) الضحى: ١١.

(٤) سبق تخريجه في ص١٠٧.

قال أبو نضرة: «كان المسلمون يرَوْن أن من شُكر النّعم أن يُحدّث بها»(١).

وكثير من الناس اليوم إذا سألتهم عن أحوالهم، وكانوا في شيء من الضيق، بادروك بالشكاية، والتضجّر. فإذا وسّع الله تعالى عليهم بعد حين، ثم صادفتهم فسألتهم عن أحوالهم، لا يتغير جوابهم، أي: يستمرون في إظهار الضيق والتضجّر. فإن قلت لهم: يا قوم اتقوا الله تعالى، أنتم بألف خير، فلِمَ الشكاية! وقد وسّع الله عليكم بكذا وكذا، ولمَ لا تعلنون بما تجدّد عندكم من نِعم؟

فيكون جوابهم: والله إنّا نخشى من الحسد، لذلك نخفي على الناس ما نحن فيه من نعيم، والنبي ﷺ يقول: «**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**»(٢).

فهذا الصنف من الناس لا يتحدثون عما أنعم الله

---

(١) فوائد تمّام برقم ١٠٦٤.

(٢) رواه الطبراني من طريق خالد بن معدان عن معاذ بن جبل، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٥/٨): رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سعيد بن سلام العطار، قال العجلي: لا بأس به، وكذّبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ.

عليهم بحال، إن كانوا في ضيق، لم يتحدثوا إلا عنه، وإن كانوا في سَعَة كتموها، فبئس القوم هؤلاء.

وأما استدلالهم بالحديث، فلا يسلّم لهم، لأن الحديث يُراد به، إن صح، أن الإنسان ما دام يسعى في حاجة من حوائجه، فعليه أن يكتمها خشية الحسد أو المنافسة ونحوها، أما إذا قُضيت حاجته وتمّت النّعمة عليه، فليحدّث بها، من باب إظهار إنعام الله عليه.

ويستأنس لهذا المعنى بقصة نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام. وذلك حين رأى وهو صغير رؤيا، فقصّها على أبيه نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام، فأمره أن يكتمها ولا يحدّث بها إخوته، حتى لا يستثير حسدهم وغلّهم عليه، لما تضمنته رؤياه تلك من إيثار الله له وتقديمه عليهم. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾[1].

فيعقوب عليه الصلاة والسلام أمر ابنه يوسف عليه

(١) يوسف: ٤ ـ ٥.

الصلاة والسلام بكتم خبر النّعمة التي لاحت بوادرُها ولكنها لم تتمّ بعدُ، خشية الحسد والأذى.

وأما بعد حدوث النّعمة وتمامها فليحدّث بها. وهذا ما جرى ليوسف عليه الصلاة والسلام حين كشف عن رؤياه لإخوته، ولكن بعد أن وقعت وتحقّقت، ولم يعد يخشى شيئاً من حسدهم أو إيذائهم. قال تعالى عنه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ﴾ الآية[1].

(١) يوسف: ١٠٠.

الشكر العملي

والشكر العملي أيضاً له عدّة أوجه نوجزها بما يلي:

- **الوجه الأول:**

يكون بإظهار النعمة أو إظهار آثارها، وإن لم يتحدّث بها بلسانه. فمثال ذلك: إنسان ضيّق الحال، يعاني من العيش شدّة، تَظهر في ملبسه ومأكله ومسكنه ومركبه، فهو لا يستطيع أن يأكل أطايب الطعام أو يلبس فاخر الثياب، أو يركب أفخم السيّارات. ولكن بعد أن وسّع الله عليه، استمرّ على هيئته الأولى في ملبسه ومأكله ومسكنه ومركبه، مبرّراً ذلك أنه يخشى أن ينتبه الناس إلى حدوث نعمةٍ عنده، فيطمعون بما في يده.

وهذا الإخفاء للنّعمة أو لآثارها ومظاهرها غير جائز مهما كانت تبريراته، وقد ذمّه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم فقال عزّ مِن قائل: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ

وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾[1]، قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: فالبخيل جحود لنعمة الله، ولا تظهر عليه، ولا تبين لا في مأكله، ولا في ملبسه، ولا في إعطائه وبذله. ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، والكفر هو: الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها فهو كافر لنعمة الله عليه انتهى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾[2] أي: جحود لنعم الله عليه، يخفيها ويكتمها، ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾[3]، أي: وإن الإنسان بهيئته ومظهره ولسان حاله يؤكّد جحوده وكتمانه لنعم الله عليه.

كما عاتب النبي ﷺ في حياته رجلاً من أصحابه على رثاثة ثوبه وقِشَفِ هيئته مع كونه من الأغنياء. فروى أبو داود عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ في ثوبٍ دونٍ[4]، فقال: «**ألك مال؟**» قلت: نعم، قال: «**من أي المال؟**» قلت:

---

(١) النساء: ٣٧.
(٢) العاديات: ٦.
(٣) العاديات: ٧.
(٤) أي في ثوب بالي.

قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: «**فإذا آتاك الله مالاً فليُرَ أثرُ نعمةِ الله عليك وكرامتِه**»(١). وفي رواية أخرى: قال: «**إن الله إذا أنعم على عبد نعمةً أحبّ أن تُرى عليه**»(٢).

• الوجه الثاني:

ومن الشكر العملي: أن يؤدي حقّ الله من النّعمة.

فالمال نعمة، وحق الله فيه أن تؤدى زكاته، قال تعالى: ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾(٣)، فمن رُزق مالاً كثيراً ثم لم يؤدِ زكاته، فليس بشاكرٍ هذه النعمة، ولو حمد الله عليها بلسانه ألف مرة.

والولد نعمة، وحق الله فيه أن يعبّدَه لله، ويربّيَه

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس برقم (٤٠٦٣)، والنسائي في الزينة (٨/١٨٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٣٤٢٨)، وأحمد (٣/٤٧٣)، والحاكم (٤/١٨١) وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: صحيح، وابن حبان في صحيحه في أول اللباس برقم (٥٤١٦)، وقال محققه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٧٤)، وابن حبان في صحيحه برقم (٥٤١٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) المعارج: ٢٤ ـ ٢٥.

على حبّ الله ورسوله، ويسمّيَه بأسماء يرضاها الله ورسوله. فمن منحه الله ولداً، فقال بلسانه الحمد لله، ولكن لم يربّه على الإسلام، ولم يغرس في نفسه حب الله ورسوله، وإنما أنشأه على حبّ المال والحرص عليه، وحب الدنيا والانغماس فيها، حتى خرج ولده حرباً على الله ورسوله، ليس له في الحياة هدف سوى إشباع نزواته ورغباته، وسوى جمع المال وتكثيره من حلال أو حرام، فهذا الأب لم يشكر الله على نعمة الولد، لأنه لم يعبّده لله الذي خلقه، بل عبّده لدنياه وهواه. وقد نعى الله سبحانه وتعالى على زوجين، سألا الله تعالى أن يرزقهما ولداً صحيح البنية سليماً من كل عيب، وتعهدا عند استجابة دعوتهما أن يحسنا شكر الله على نعمته، فلما أعطاهما الله تعالى ما سألاه، ومنحهما ما تمنّياه، ولداً معافًى سليماً من كل عيب، إذا بهما يعبّدانه لغير الله.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (١).

(١) الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩٠.

• الوجه الثالث:

ومن الشكر العملي: أن لا تصرف النّعمة في معصية الله.

قال زازان: «مما يجب لله على ذي النّعمة بحق نعمته، أن لا يتوصل بها إلى معصية»[١].

فالمال نعمة، ومن منّ الله تعالى عليه بالمال ثم صرفه في معصية الله لا يكون شاكراً هذه النعمة، ولو كان قد أدّى زكاته، لأن شكر الله على النّعمة تعني أن تنفقها فيما أذن الله فيه، وليس فيما نهى الله عنه.

• الوجه الرابع:

ومن الشكر العملي: أن تتحسّن عبادة الإنسان بعد توالي النّعم عليه.

فالإنسان إذا كان مشغولاً بهمّ عظيم، أرّقَ عليه عَيْشَه، أو بضيق شديد، شغله عن عبادة ربه، ثم جاءه الفَرَج، وكَشَف الله ضُرّه، لزمه أن يزيد من عبادته لربه، لأن الهمّ الذي كان يُشغله، والجَهْد الذي كان يتكبّده،

(١) عدّة الصابرين: ١٣٠.

في معاناة ذلك الضُرّ، لو بذل مثله في شكر من كشف الضرّ عنه لما كان وافياً، فلا أقلّ من أن يبذل بعضه تعبيراً لله عن شكره وامتنانه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾(١).

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال: قال ابن زيد: هو المتوسط في العمل، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ الآية، فالمقتصد ههنا هو المتوسط في العمل، ويُحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العِظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام والدؤوب في العبادة والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصّراً والحالة هذه، والله أعلم.

وكان النبي ﷺ يقوم الليل حتى تتفطّر قدماه، فقالت عائشة رضي الله عنها: لِمَ تصنعُ هذا يا

(١) لقمان: ٣٢.

رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر! قال: «**أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً**»[١]، أي: إذا منّ الله تعالى عليّ بمغفرة ذنبي، وأنعم عليّ بمُبتغاي، أفلا أقابله بزيادة الطاعة أو بالمداومة عليها، تعبيراً عن شكري له؟

(١) أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة برقم (٢٨١٩).

الشكر القلبي

والمراد به أن يعرف العبدُ في قلبه أنّ النّعم التي يتقلّب بها، إنّما هي من الله خلقاً وإيجاداً وتفضّلاً وتكرّماً، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[1].

وهذه المعرفة تورث في قلبه محبة الله، والرضا بما قسم الله له. وأما من لم يرضَ بما قسم الله له، بل رآه قليلاً وازدراه، فلا يكون بحالٍ من الشاكرين.

مثال ذلك: إنسان يعيش مقتصداً في عبادته، يصلي صلاة الفرض ولا يزيد، وهو أيضاً متوسط الحال في معيشته. وفي إحدى المرّات، حدثته زوجته قائلة: إن جارنا فلاناً يصلي الصبح في جماعة كل يوم، ويفعل من الخير كذا وكذا، فتمرّ كلماتها عليه بلا تأثر، فلا تراه يتحسّر ولو قليلاً في قلبه على تقصيره هو في عبادته لربه، أو على عدم مساواته لجاره في هذه الفضائل، بل

(١) النحل: ٥٣.

إذا ساورته نفسه بشيء من هذا، بادرها إلى الإجابة بأن جارنا الثاني، لا يصلي أصلاً، فالحمد لله على الحال التي هو عليها، على الأقلّ هو لا يزال يصلي الفرض.

وفي مناسبة أخرى، تخبره زوجته عن صديق له، كيف فتح الله عليه في التجارة، حتى صار ذا ثروة عظيمة، مع أنه بالأمس كان فقيراً لا حيلة له، فتجد الغصّة قد ملأت قلبه ممّا سمع، ويتحسّر على نفسه، ويتمنى لو كان ذلك الفتح عليه هو لا على جاره.

فهذه الغصّة وتلك الحسرة عند فَوْت المال، تدل على عدم رضاه بما قسم الله له في عيشه ورزقه، وأما عدم تأثره أو تحسّره على نقصان عبادته، فيدلّ على رضاه بتقصيره في عبادة ربه، فمثل هذا العبد لا يكون شاكراً لله تعالى في قلبه، وإن أظهر الشكر بلسانه، لأن التأثر وعدمه هما من أعمال القلوب، وبهما ينجلي شكر القلب أو عدمه.

ويستأنس لهذه المسألة بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً: من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضّله به كتبه الله شاكراً صابراً. ومن**

نظر في دينه إلى من هو دونه، ونظر في دنياه إلى من هو فوقه، فأَسِفَ على ما فاته من الدنيا لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً»[١].

والشكر القلبي هو أعظم أقسام الشكر وأهمّها، لأنه إذا فات هذا القسم فات الشكر كله، بخلاف القِسمين الآخرين. فمن لم يكن شاكراً في قلبه، لا يكون شاكراً لله تعالى، ولو أظهر الشكر بلسانه أو بمظهره، فهذا لا يعدو أن يكون عادة له أو مراءاة. أما من كان شاكراً بقلبه، فهو شاكر لله، فإن فاته شكر اللسان أو شكر العمل، فهو مقصّر فيهما، لأن تركهما يكون عن غفلة منه أو نسيان أو تكاسل، وليس عن عدم إرادة الشكر.

ومن هنا خصّ النبي ﷺ هذا القِسم بالذكر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أربع من أُعطِيهن فقد أعطيَ خير الدنيا والآخرة، قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وبدناً على البلاء صابراً، وزوجة لا تبغيه خَوَناً في نفسها ولا ماله**»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة برقم (٢٥١٢) وقال: حسن غريب، وضعّفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم (٤٥١).

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٣/٤) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجال الأوسط رجال الصحيح.

ومن متمّمات الشكر: أن يقوم الإنسان بشكر الناس، الذين يسّر الله النّعمة على أيديهم، وجعلهم سبباً لوصول النّعمة إليه، ومن قصّر في هذه، فهو مقصّر بشكر الله تعالى.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لا يشكرِ الناس لا يشكرِ الله**»[١].

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة برقم (١٩٥٤) وقال: حسن صحيح، وأبو داود في الأدب برقم (٤٨١١)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (١٥٩٢).

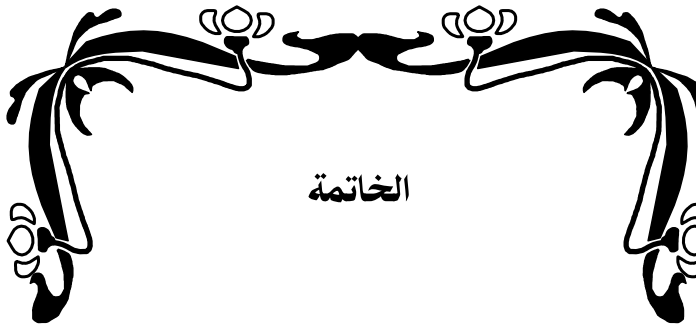

الخاتمة

وبعد بيان كيفية الشكر بأقسامه كلها، وبيان المكائد التي يكيد الشيطان بها الناس ليصرفهم عن شكر الله تعالى، بعد كل هذا البيان من القرآن والسنّة، تستغرب أنه إذا أتى يومُ القيامة، وجدتَ أن إبليس استطاع أن يصرف أكثر الناس عن شكر الله سبحانه وتعالى، وأن ما ظنّه بالناس وهو أنّه قادر على إغوائهم وصرفهم عن شكر الله تعالى، كان وللأسف مصيباً فيه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾[1]، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من ذاك الفريق الشاكر لربه المتّبع لرضوانه، إنه خير مسؤول.

(١) سبأ: ٢٠.